عبد الرحمن الثعالبي: الإمام المتصوف في فكر عبد الرزاق قسوم
صحراوي عبد القادر ، المجلد التاسع ، العدد 2 ، ص ص 171- 176

E-ISSN : 2571-9742
ISSN: 1112-945X



عبد الرحمن الثعالبي: الإمام المتصوف في فكر عبد الرزاق قسوم

أ.د. عبد القادر صحراوي

جامعة سيدي بلعباس

sahraoui195922@yahoo.com

تاريخ الإيداع: **2018/08/10** تاريخ القبول: **2018/09/01** تاريخ النشر: **2018/09/30**

الملخص:

يعتبر عبد الرحمن الثعالبي من العلماء المتصوفين البارزين في القرن التاسع الهجري، فقد جمع بين الإنتاج العلمي المتمثل في مجموعة كبيرة من المؤلفات، و السلوك الصوفي المستمد من الكتاب و السنة، كما أثر على عدد كبير من المعاصرين واللاحقين، و تخرج على يديه علماء و متصوفة كثيرون، لعل من أشهرهم تلميذه أحمد الجزائري. ويمثل مؤلف الأستاذ عبد الرزاق قسوم(1) عن تصوف الثعالبي إسهاما علميا مرموقا كشف بحق عن جوانب كثيرة من شخصية هذا العالم الفذ ، و بين في نفس الوقت الصفات الحقيقية للمتصوف من خلال وضعه أي عبد الرحمن الثعالبي، في إطار التصوف الإسلامي، و دراسة شخصيته دراسة علمية.

الكلمات الدالة:

الأرشيف العثماني ،العلاقات ،الدولة العثمانية، وثائق همايون ،دفتر مهم

Abstract:

Abdul-Rahman al-Tha'alibi is one of the prominent scholars of the ninth century AH. He combines the scientific production of a large collection of literature and the mystical behavior derived from the Quran and the Sunna, as well as a large number of contemporary and later scholars. Ahmed Aljazairi is the most famous student of Abdul-Rahman al-Tha'alibi. The book of the Professor Abdul Razzaq Gassum on the mysticism of al-Tha'alibi is an outstanding scientific contribution that revealed many aspects of the personality of this savant, and at the same time, the real characteristics of the mystic through his position, namely, Abd al-Rahman al-Tha'alibi, in the context of Islamic mysticism, and stud his personality Scientifically.

Key Word :
Abd al-Rahman al-Tha'alibi - Sufism - Abdul Razzaq Gassum - Quran - Sunnah.

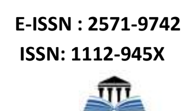
E-ISSN : 2571-9742
ISSN: 1112-945X


يعتبر عبد الرحمن الثعالبي من العلماء المتصوفين البارزين في القرن التاسع الهجري، فقد جمع بين الإنتاج العلمي المتمثل في مجموعة كبيرة من المؤلفات، و السلوك الصوفي المستمد من الكتاب و السنة، كما أثر على عدد كبير من المعاصرين واللاحقين، و تخرج على يديه علماء و متصوفة كثيرون، لعل من أشهرهم تلميذه أحمد الجزائري. ويمثل مؤلف الأستاذ عبد الرزاق قسوم[1] عن تصوف الثعالبي إسهاما علميا مرموقا كشف بحق عن جوانب كثيرة من شخصية هذا العالم الفذ ، و بين في نفس الوقت الصفات الحقيقية للمتصوف من خلال وضعه أي عبد الرحمن الثعالبي، في إطار التصوف الإسلامي، و دراسة شخصيته دراسة علمية، سمحت له اعتبار التصوف أخصب جانب في حياة الثعالبي الذي نهج منهج التصوف الإسلامي الصحيح المبني على القرآن الكريم و السنة النبوية. و لاشك أن حياة الثعالبي مثال للعالم الزاهد الذي دعا الناس إلى العزلة والهروب من الدنيا و تفضيل الآخرة و التفرغ لها، حتى و لو اقتضى ذلك صبر على ظلم السلطان و سوء الأحوال. و لكن ماهي المحطات الرئيسية في حياة الثعالبي؟ و ما موقع تصوفه في فكر عبد الرزاق قسوم؟

1- حياة عبد الرحمن الثعالبي و إنتاجه الفكري:

ولد عبد الرحمن الثعالبي بواد يسر سنة 785هـ/1384م، و ينتمي إلى أسرة علم و جهاد، و جمع بين شرف النسب الذي ينتهي عند جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه، و الملك و المجد بفضل تسيير أسرته لمنطقة متيجة أثناء عهد الزيانيين. و ارتبط إسم الثعالبي بمدينة الجزائر ارتباطا وثيقا، و يعود ذلك إلى اعتباره أحد رموز المدينة الرئيسيين، و إلى الدور التاريخي الذي قامت به أسرته في الدفاع عن الجزائر إثر ضعف دولة بن عبد الواد. و تجدر الإشارة إلى إرتباط الكثير من المدن الجزائرية بأسماء الأولياء مثل اعتبار الجزائر مدينة سيدي عبد الرحمن، ووهران مدينة سيدي لهواري[2]. و لا ريب أن المجتمع الجزائري في عهد الثعالبي و بعده، قد ارتبط بالمفاهيم الإسلامية، و تأثر بروح التصوف، مما جعل أفراده يقدسون الأولياء و يحترمونهم، و يقيمون لهم الزوايا و يتبركون بأضرحتهم[3].

لقد بدأ الثعالبي خطواته العلمية الأولى في مدينة الجزائر قبل أن ينتقل إلى مدن و مناطق إسلامية أخرى طلبا للعلم. و يبرز لنا الاستاذ قسوم المحطات العلمية الرئيسية في حياة الثعالبي انطلاقا من بجاية في سنة 802 هـ/1399م لقربها من الجزائر، وشهرة علمائها في الدين و التصوف، و منها مدرسة عبد الرحمن الوغليسي. ثم انتقل إلى تونس في أواخر سنة 809 هـ وبداية 810 هـ/1409م، و لعله درس أو توقف بقسنطينة، كما سافر إلى مصر و مكة المكرمة،

E-ISSN : 2571-9742
ISSN: 1112-945X


التي عاد منها ثانية إلى أرض الكنانة. و يعتقد أنه زار بغداد و دمشق و بيت المقدس كما هي عادة الحجاج و العلماء في زمن الثعالبي، و تجدر الإشارة إلى أن الثعالبي قد التقى خلال رحلته بمجموعة كبيرة من العلماء تلقى عنهم العلم بالمشافهة أو بالإجازة، مما جعله يتضلع في مختلف انواع العلوم كالحديث و التفسير و المنطق و علم الكلام و اللغة[4].

تظهر الصبغة الدينية بوضوح في رحلة الثعالبي إلى مختلف المدن الإسلامية، و لعلها تشكل أحد المصادر الرئيسية التي ساهمت في تكوينه خاصة ما يتعلق بزهده و تصوفه في الحياة. كما ساهمت هذه الرحلة العلمية في اكتسابه العلم و تدريسه و تأليف عدد كبير من المؤلفات، تمثل انتاجه الفكري و العلمي تزيد على التسعين مؤلفا، شملت كتبا في الوعظ و التذكير والتفسير و الفقه و الحديث الشريف، و السير و التراجم و التاريخ و اللغة، و التي هي عبارة عن مخطوطات و كتب مطبوعة مثل " الجواهر الحسان في تفسير القرآن، و " العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة، و " الأنوار المضيئة الجامعة بين الحقيقة والشريعة"، و " رياض الصالحين" ، و " الأنوار في آيات و معجزات النبي المختار"، و " غنية الواجد و بغية الطالب الماجد" وغيرها كثير[5].و يظهر من خلال هذه الكتب تمرس الثعالبي على التأليف الذي لا يخرج على ما يسميه بغنيمة ذوي الألباب من أجل التزود للآخرة و العمل بالزهد و التصوف، و يحتل هذا الأخير موقعا رئيسا في مؤلف و فكر عبد الرزاق قسوم.

2- موقع تصوف الثعالبي في فكر عبد الرزاق قسوم:

يعتبر الأستاذ عبد الرزاق قسوم التصوف أخصب جانب في حياة و شخصية عبد الرحمن الثعالبي، و يؤكد أنه نهج طريق التصوف الإسلامي الصحيح المستمد من الكتاب و السنة، و لعل وضعه الثعالبي في إطار التصوف الإسلامي و دراسة شخصيته دراسة علمية يعد أمرا جديدا، بالنظر إلى حصر العامة لهذا الإمام في إطار محدود هو إطار الولي الصالح الذي أحيط بخرافات عديدة كمسألة التبرك بضريحه[6]. و مما تجدر الإشارة إليه التعرض لتعريف التصوف و التأكيد على أن اختلاف مصادر اشتقاقه لا يمنع من اعتباره أخلاقا و معرفة و سلوكا، يعبر صاحبه عن مشاهدة و مناجاة لخالقه عز وجل[7].

و تكشف تعاريف رواد الصوفية للتصوف كالجنيد و ذي النون المصري و غيرهما و التي ساقها الأستاذ قسوم، عن اختيار التصوف الإسلامي المستمد من الكتاب و السنة أسلوبا للحياة يسير عليه عبد الرحمن الثعالبي. و لا يمكن إبراز معالم شخصية الثعالبي الصوفية من دون الإشارة إلى مصادر تصوفه و منهجه الصوفي الذي تضمنته مؤلفاته. و يقسم الأستاذ

E-ISSN : 2571-9742
ISSN: 1112-945X
DM

قسوم التصوف إلى نوعين: تصوف علمي يجعله مرادفا للزهد مستوى من الإسلام، و تصوف فلسفي يؤمن أصحابه بالحلول ووحدة الوجود تطور إلى مدرسة فلسفية، قبل أن ينحط إلى مستوى الطقوس و التقاليد الميتة. و ينتمي الثعالبي إلى النوع الأول، ذلك أنه تأثر بالمدرسة الغزالية المنسوبة إلى أبي حامد الغزالي، و يبرز ذلك في أفكاره و مواقفه التي تضمنتها تآليفه المختلفة، و تطابقها مع مؤلفات الغزالي مثل " جوهر القرآن" ، " والدرة الفاخرة في كشف علوم الآخرة" لأبي حامد الغزالي، و " الجواهر الحسان في تفسير القرآن" و " العلوم الفاخرة في النظر في علوم الآخرة للثعالبي[8].

يشترك الثعالبي مع الغزالي في رفض الواقع المتميز بالفتن السياسية و الانحرافات العقلية و التعصب المذهبي و حياة الترف و البذخ، و الإنحلال الذي أصاب المجتمع الإسلامي، و بخاصة المجتمع الجزائري التي نقلها إليه الأندلسيون. و لا ينحصر تأثر الثعالبي بالغزالي فقط، بل هناك شخصيات أخرى كان لها نصيبا في رسم ملامح شخصية هذا الإمام مثل القشيري، والقرطبي، و الإشبيلي، و الشاذلي، و ابن عطاء الله السكندري و غيرهم. و من ثم نصل إلى نتيجة أساسية تبرز لنا الموقع المرموق الذي يحتله تصوف الثعالبي في فكر الأستاذ قسوم، مفادها أن تصوفه مستمد من الكتاب و السنة، و رفض الجدال الذي تحمله بعض المذاهب القائلة بوحدة الوجود و الحلول، و يظهر ذلك من خلال الأفكار الثعالبية و التفاسير القرآنية التي يذكرها الأستاذ قسوم[9]. و يستشف من مؤلفات الثعالبي أن المتصوف الحقيقي هو الذي تتوفر فيه شروط أساسية منها معرفة الكتاب و السنة معرفة دقيقة و العمل بهما، و السعي إلى معرفة الله عن طريق إدراك آياته و التفكير في مخلوقاته، ناهيك عن التقوى و الورع، و ترك هوى النفس و حب الدنيا و الإبتعاد عن السياسة و معاداة الظلمة و المتجبرين[10].

و يستلهم الأستاذ قسوم ملامح شخصية الثعالبي من المؤلفات التي كتبها مثل : "رياض الصالحين" و " التقاط الدرر" و " العلوم الفاخرة في النظر في أمور الآخرة" و " الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة و الحقيقة"، و من خلال الكتاب الأخير يبرز الثعالبي العلاقة بين الحقيقة و يقصد بها التصوف، و الشريعة التي تعني الأحكام الفقية، مبتعدا بذلك عن الحقيقة الفلسفية التي يعبر عنها الفلاسفة بالحكمة، ذلك أن الثعالبي أقرب إلى الغزالي و الجنيد و كل أئمة التصوف و الزهد المبني على حفظ القرآن و اتباع السنة النبوية الشريفة. و إن الذي يعتصم بالله و يعمل بالكتاب و السنة يكون مستمسكا بالعروة الوثقى، وهذا هو قول و حال عبد الرحمن الثعالبي الذي يصنفه الاستاذ قسوم ضمن أعلام التصوف[11].

E-ISSN : 2571-9742
ISSN: 1112-945X


و قد أثر عبد الرحمن الثعالبي تأثيرا كبيرا في ميدان الزهد و التصوف عن طريق تلاميذه كالسنوسي و الجزائري، وكذلك بواسطة مؤلفاته وزاويته التي بنيت عند ضريحه، و التي قصدها الناس للبركة و الشفاء. و هكذا أصبحت الثعالبية تدل على مدرسة في الزهد و التصوف و ترك الدنيا لصالح الآخرة. و قد أسهم الثعالبي أيضا في السيرة و التاريخ رغم اقتصار شهرته على العلوم الشرعية و الزهد، فقد كتب كتابه " الأنوار في آيات النبي المختار" و تصب مختلف مؤلفاته فيما يسميه هو بغنيمة ذوي الألباب و يقصد بذلك التزود للآخرة و العمل بالزهد و التصوف عن طريق الدعاء و الذكر(12).

يقدم الأستاذ قسوم تصورات الثعالبي و أفكاره حول بعض المسائل الأساسية في التصوف كالمعرفة، و التوبة، والورع، و الزهد و التوكل، و هي وسائل لبلوغ غاية عظيمة هي رضا الله عز وجل. فبخصوص المعرفة يرى الثعالبي أنه يجب ربطها بالخالق سبحانه و تعالى، باعتبار أن الذي يعرف نفسه، سيعرف ربه و يطيعه، في حين أن الذي يجهله سيعصيه، و يؤكد أن طاعة الطائعين هي على قدر معرفتهم، كما أن معصية العاصيين هي على قدر جهلهم. أما التوبة فهي الرجوع من أفعال مذمومة إلى أفعال محمودة، و لا يكتفي الثعالبي في تحديده لمفهوم الورع عند مجرد التفرقة بين الحلال و الحرام، بل يقرنه بترك فضول الكلام. و أما الزهد الذي يلتزم به الثعالبي فهو مستوحى من الكتاب و السنة، و فيه دعوة إلى الآخرة و اعتدال في الحياة الدنيا، و في هذا يقول الثعالبي "... و إياك أن تغفل عن الله طرفة عين، و اعلم أن ذلك لا يتيسر ، ما لم تنقطع عن الدنيا بقدر ضرورتك ، و الضرورة مطعم و ملبس و مسكن، و الباقي كله فضول، و الضرورة من المطعم ما يقيم صلبك و يسد رمقك"(13).

و هكذا نلاحظ اقتران اسم الثعالبي بالزهد و التصوف، كاقتران اسم ابن رشد بالفلسفة و ابن خلدون بالتاريخ و العمران و الاجتماع البشري، فالرجل تحرر من قيود الحياة و ترك مظاهر البذخ و الترف، و تمسك تمسكا شديدا بالكتاب و السنة، ووافق ظاهره باطنه، كل ذلك من أجل تحقيق هدف واحد هو كسب رضا الله عز وجل، و هذه لعمري أعلى مراتب العارفين من نساك و تقاة و مقربين من المولى سبحانه و تعالى(14).

الهوامش :

1- عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمن الثعالبي و التصوف، الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1978.

2- نفسه، ص.25، 29.

E-ISSN : 2571-9742
ISSN: 1112-945X


3- أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16-20م)، الجزء 1، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1981، ص.39-40، 240-263،241.

4- عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص 32-36؛ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.82-83.

5- عبد الرحمن الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1978، ص.274؛ عبد الرحمن قسوم، المرجع السابق، ص.57؛ أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.59-60، 83.

6- عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق، ص.27، 49.

7- نفسه، ص.51.

8- نفسه ، ص.55-57.

9- نفسه، ص.55-.59

10- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص. .487

11- عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق ، ص.60-.62

12- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص.59-60، .84

13- - عبد الرزاق قسوم، المرجع السابق ، ص.67-.75

14- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص. 75.